رؤى

نقد تسليع العلاقات داخل الأسرة

سعيدة بنكيران

ليست البنوك وحدها التي تمنح قروضاً بفوائد، وإنما الأسر كذلك. كثيرون هم المغاربة الذين يعيشون تحت رحمة البنوك وقروضها، يتساءلون يومياً عما تبقى من أعمارهم، من أنفاسهم وجيوبهم خوفاً من الموت يوماً على أرصفة طرقات حفرت منذ زمن بعيد وأهملت منذ زمن أبعد. قصة المغاربة مع القروض لم تبدأ مع أول بنك جاء بفكرة منح قرض بفائدة وقصتهم معها لم تنتهِ باللجوء إلى البنك الذي يقرض بأقل الفوائد الممكنة، ليمنح الحق في امتلاك سكن وينتزع الحق في التمتع بالسكينة.

في ذهن كثير منا أسماء لبنوك عديدة لا يهمني الحديث عنها بقدر ما يهمني الحديث عن بنك عمره يساوي أعمارنا ومستخدموه هم أجدادنا وسلالتنا وزبائنه الوحيدون والمخلصون هم «نحن»: إنه «بنك الأسرة».

حينما يصبح القانون الذي يحكم أسرنا هو قانون القرض، فهنا تصبح الأسرة بنكاً، ويصبح القرض استلاباً، وتصبح الفائدة ثمناً لشراء الأب والأم وأقرب الناس؛ أي لشراء العلاقة مع الآخر. هذه الأخيرة التي إذا ما اشتريت ألغي طابعها العلائقي، وأصبحت سُمَّاً جميلاً نتلذذ بمذاقه ما دامت أفواهنا لم تتذوق غيره، فظننا وآمنا بأن كل ثدي لا يمكنه إفراز شيء أخر أو أشخاص آخرين غير هذا السم اللذيذ.

حينما أتحدث عما أسميته بـ«البنك الأسري»، فإن ما أقصده بالضبط هو الحديث عن بعض الأسر التي يحكم قانون القرض العلاقات التي تربط بين أفرادها. وعندما أقول قانون القرض، فإنني أقصد بالتحديد القانون الذي يحصر الآخر في «عليك أن تدفع لي ما سبق أن منحته لك بثمن إضافي (الفائدة) يفوق 100% في الوقت الذي أحدده أنا، أما أنت فما عليك إلا الالتزام بالدفع إن كنت فعلاً حريصاً على البقاء داخل الإطار الذي حددته أنا لكي تقطن فيه أنت، وتلتقي فيه بكل الناس إلا أنت».

غير أن الثمن الذي يطلبه هذا البنك ليس عبارة عن نقود، والضمان ليس عقد عمل أو طبيعة الوظيفة التي يمارسها الشخص من أجل الحصول على لقمة عيش، وإنما الضمان هو القدرة على إلغاء النفس أمام الآخر، أي أن «أمنحك حق التواجد بالنسبة لي، أي أن أقذف بك خارج دائرة علاقاتي شرط أن تكون كما أريد وتفعل كل ما أريد»، وبذلك تصبح الوظيفة التي تضمن للشخص الحصول على قرض داخل الأسرة، هي تلك التي تمنحه الاختصاص في قول «نعم»، فيصبح النطق بـ«لا» هو المهدد الرئيسي بالطرد من الوظيفة، وفقدانها يؤدي إلى فقدان الحظ في الحصول على قرض من هذه الأسرة، لأن الحياة في حضنها تتطلب القبول والالتزام بهذا المبدأ «كل ما أمنحك إياه لا بد أن تعوضني عنه». وبذلك تنمحي كلمة المسؤولية التي تعترف بالحدود بين واجبات الوالدين وواجبات الأبناء، ليحل محلها مفهوم التضحية الذي يولد لدى الأبناء بوعي أو دون وعي منهم الإحساس بأنهم المصدر الأول لتعاسة آبائهم وأمهاتهم.

فرق كبير بين والدين يحدثان طفلهما فيؤكدان له أنهما أنجباه لأنهما اختارا ذلك وقررا ذلك ورغبا في ذلك، وبين والدين يقولان له «جئت بك إلى هذه الدنيا محيت غلطت في الحساب (لأنني أخطأت في الحساب)» أو «باش باك ما يهربش علي» (حتى لا يهرب أبوك عني)، أو «محيت كنا قنطانين وبغينا شي حاجة لي تعمر علينا الدار» (لأننا كنا نحس بالملل الفظيع وأردنا شيئاً نملأ به الدار)».

حينما يتم اعتبار طفل «شي حاجة» (شيئاً ما)، فالأمر غالباً سوف يتعلق بـ«شي حاجة خطيرة» على نفسه، على أسرته، على مجتمعه، وعلى العالم.

كثيرون هم الأمهات والآباء الذين يعتبرون أن المجهودات التي يقومون بها من أجل مساعدة أبنائهم على النمو «جسمياً» -وأقول جسمياً هنا- لكي لا أذكر شيئاً آخر مثل «النمو نفسياً وفكرياً ووجودياً»، لأن هذا النوع من النمو يصعب أن يتحقق داخل أسرة يحكمها قانون القرض، قلت إن هذه المجهودات يتم اعتبارها كتضحية من طرف الوالدين، فليس من الغريب إذن أن نسمع جملاً يتم النطق بها في أوقات عديدة كوقت تناول الطعام مثلاً، فيتم أكلها بدل الطعام، وتعجز المعدة عن هضمها فتضطرب، وندخل بعدها الطعام المسكين قفص الاتهام وكأنه هو الوحيد الذي باستطاعته أن يتلف جهازنا الهضمي، ونبرئ بذلك دور نظرة ما أو كلمة ما أو علاقة ما في أمراض أجسادنا واغتصابها.

كثيرون هم الذين سمعوا ويسمعون جملاً مثل «فنيت شبابي عليك (أفنيت شبابي عليك)»، و«كون ما كانوش عندي دراري كون راه ما كان عندي تا مشكل» (لو لم يكن عندي أطفال لكنت بلا مشاكل)، أو «كانبغيك بزاف أولدي محيت كتسمع الهدرة» (أحبك كثيراً يا ولدي لأنك تطيع كلامي)، أو «غادي نشريلك هاد الحاجة محيت ما درتيش البسالة» (سأشتري لك تلك الحاجة لأنك طفل لا يقوم بالشغب).

«البسالة» (الشغب)، ما أقساها هذه الكلمة وما أقبحها لأنها تقف بيننا وبين حب أمهاتنا وآبائنا لنا. ما أقبحها لأنها تجعل من حبهم لنا حباً مشروطاً لا يمكننا الحصول عليه، إلا إذا امتثلنا للأوامر دون أن نسأل ونعبر ونحتج ونفهم ونتعلم الفرق بين ضرورة تحقيق رغباتنا التي تعزز خصوصياتنا وتبنينا وتساعدنا على تأكيد أنفسنا، وضرورة التنازل عن رغباتنا الأخرى التي من شأنها أن تدمرنا وتدمر العالم من حولنا، وبذلك نستطيع تعويضها بأخرى أكثر إنسانية وتحضراً. فما أخطر ذلك الحب المشروط الذي يختلط فيه الحب بالقرض، فتصبح كل كلمة جميلة قلتها لك وكل شيء قمت به من أجلك عبارة عن قرض لا بد وأن تدفع ثمنه، وذلك بأن تكون مثلي وتساعدني على إغلاق الطريق الذي يؤدي بك إلى نفسك، إلى شخصيتك المستقلة وإلى حميميتك، ذلك الحب المشروط الذي لا يمكنك الحصول عليه إلا إذا درست جيداً داخل مدرسة الأسرة والمجتمع معنى الفرق بين «السخط» و«الرضا»، وصرت مؤمناً بأن الكلمة الأولى تفتح أبواب الشقاء والأخرى تغلقها. إنه السخط الذي يبدأ منذ اليوم الذي تبكي فيه وتصرخ لأنك أحسست بالبرد وكنت في حاجة إلى غطاء، وإذ بأمك تغلق فاهك المحتج بثديها، لأنها ظنت أنك جائع، ويجب أن ترضع في تلك اللحظة فاستمريت في الصراخ، وأصبحت «مسخوطاً» لأنك لم تعرف أن «الرضا» يعني أن تأكل في الوقت الذي تشعر فيه بالبرد وتتغطى في الوقت الذي تريد فيه أن تلعب وتضحك إذا ما أحسست برغبة في البكاء لكي لا تدعى بـ«المسخوط»، أو «الباسل».

فما أخطر تلك «البسالة» التي قد ينبذ بسبب اقترافه لها طفل فيخلط بذلك هذا الصغير بين الحق في الخطأ والتعلم منه وتجاوزه، وبين أن الخطأ يحول الإنسان إلى «باسل» (مشاغب وغير لبق)، بل الحياة كلها إلى نوع من «البسالة». عندئذ يصبح الخوف من الفشل يوازي ويعادل عشقنا له ما دامت «البسالة» هي نفسها الحياة.

فلا داعي إذن للاستغراب إن كنا شعباً يعشق الفشل، لأن في هذا العشق حباً للحياة وتعلقاً بها ما دامت لا تعني في العمق شيئاً سوى «الفشل».

سعيدة بنكيران
أخصائية ومعالجة نفسانية من المغرب

من ورشة حول التكون المهني نظمها المركز في قلقيلية.